

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب

كانت وفاته رحمه الله تعالى بعد صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثِ
بِقين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

وكان مولده بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛
فكان عمره سبعاً وخمسين سنة تقريباً ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد
لدين الله ولُقّب بالملك الناصر لثمانِ بقين من مجادى الآخرة سنة أربعٍ
وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانية أشهرٍ
 وخمسة أيام؛ ومنذ خلع العاضد في سابع المحرم سنة سبعٍ وستين
 وخمسمائة اثنتين وعشرين سنة وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس صفر؛ ونال المسلمون لوفاته
من الألم ما لا يُعبر عنه، ولما مات دُفن بقلعة دمشق في منزله؛ وما زال
ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد
القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية، وأمر ببناء التربة في سنة تسعين
 وخمسمائة؛ فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصرية
للمحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم أمر بعمارة القبة في حد
جامع دمشق. فعمرت ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين
 وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار
الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، وصلى عليه قدام باب
النسر صلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي بإذن الأفضل، ثم
حمل إلى لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق،
مضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

قال ابن شداد: لما مات السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً في سائر أنواع الأملاك ، وحسب ما وهبه من الخيل في مدة مقامه على عكا فكان تقديره اثني عشر ألف رأس: ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه يلازمه في طلبه: وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف، وكان له ركعات يصلحها من الليل .

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيره سبعة عشر ولداً: الملك الأفضل نورُ الدين أبو الحسن علي، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز عمادُ الدين أبو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غياث الدين، وقيل شهاب الدين، أبو منصور غازي؛ والملك الظاهر مظفر الدين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدين أبو يعقوب يوسف؛ والملك الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود؛ والملك الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك المفضل قطب الدين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عز الدين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفر فخر الدين أبو منصور ثورانشاه؛ والملك العادل نور الدين أبوالمظفر ملكشاه؛ والملك المنصور نصره الدين ميرمران؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل ؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر؛ وابنة صغيرة.

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى

من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقرّ ملكُ دمشق وما معها للملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده، ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه، الملك الظافر خضر، والملكُ المفضلُ موسى.

واستقرّ ملكُ الديار المصريّة للملك العزيز عماد الدين أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملكُ حلب وما يليها للملك الظاهر غياث الدين غازي، وعنده أخوه: الملك الزاهر داوود، فجعله من قبّله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرّحبة [وتدمر] للملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السلطان الملك الناصر.

واستقر ملك حماة وسلمية والمعرة ومنبج للملك المنصور ناصر الدين محمّد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقرّ ملك حرّان، والرّها، وميافارقين، والرّقة، وقلعة جعبر، والكرك والشوبك للملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السلطان.

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأجدد [بهرامشاه] بن قرّخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب.

- ١٠٦٠٦ -

واستقر ببغرين وأفامية وكَفَرُ طاب عز الدين [إبراهيم] بن شمس
الدين بن المقدم.

واستقر بصهيون ناصر الدين [منكورس بن خمارتكين].

[واستقر] بشيزر وأبي قبيس [سابق الدين عثمان بن الداية].

واستقر بتل باشر بدر الدين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقر بَعَيْنتاب ناصر الدين شحنة حلب.

هذه الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر رحمه
الله.

فلنذكر الآن أخبار الديار المصرية ومن ملكها بعد وفاة السلطان
الملك الناصر، ونجعل ما يقع لهؤلاء الملوك، أو في ممالكهم، من الحوادث
في ضمن أخبار ملوك الديار المصرية؛ ونبّه عليها بالتراجم، على ما نقف
عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدين أبي الفتح عثمان

ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية ملك الديار المصرية عندما وصل إليه الخبرُ بوفاة والده السلطان الملك الناصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحسن السيرة وأطلق جميع ما كان يُؤخذ من التجار وغيرهم من المكوس على اسم الزكاة، وجّهز إلى البيت المقدس عشرة آلاف دينار لتصرف في مصالحه؛ وأكرم أصحاب أبيه وعاملهم الأفضل أخوه صاحب دمشق بخلاف ذلك، فمالت القلوب إلى الملك العزيز ونفرت عن الملك الأفضل، فاستشعر الأفضل من أمرائه، وعزم على القبض عليهم؛ فبلغهم الخبرُ ففارقوه، واتصلوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالديار المصرية في بقية السنة فأكرمهم وقربهم وكان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جبيل في مستهل صفر سنة تسعين وخمسمائة بمواطأة ممن كان فيه، وذلك أن الحصن كان عدّة من فيه خمسة عشر رجلاً، فندب متولّي البلد منهم عشرة لجباية الجزية، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمسة الذين تأخروا بالحصن معه، وبقي به أربعة من الأكراد، فأغلقوا باب الحصن، وتوجّه أحدهم إلى الفرنج الذين بالتيرون فأخبرهم بخلو الحصن، وكان به حداد نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن، فلما عاد الوالي منعوه من الدخول ورّموه بالحجارة، فكسروا يده، وقالوا هذه القلعة قد صارت للقومص، وجاء أهل التيرون بالليل فطرّدوا من كان بالبашورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جبيل وتحدّثوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطوا نصفَ ما بالحصن من سائر الحواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عمّل طرابلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلموا الحصن، فرتب الفرنج فيه من الجرّخيّة ألفاً وخمسين جرّخياً.

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جبيل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولا إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل، فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دزبّاس وفُوض القضاء بالديار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن على بن يوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوليّ وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين، وقيل بل وليّ القاضي محيي الدّين محمد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فوليّ سنة، ثم عُزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام

والصلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل

وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسعين وخمسمائة توجّه الملك العزيز إلى الشام، وترك بالقاهرة من الأمراء بهاء الدّين قراقوش

وصيرم، وجَهَّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثغرَي الإسكندريَّة ودمياط ومعهم سبعمائة فارس، واستصحب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميراً عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحلقة ألف فارس. فلما اتصل بالفضل خروجه استعدَّ وأنفق النفقات الوفرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولما وصل الملك العزيز إلى الغور احتاط على الخاصِّ الأفضلي به، وشرع في إقطاع أعمال الشام، وجَهَّز من أمرائه: قائماًز وعشرين أميراً، منهم، جهَّار كس، وميمون القصري، وسنقر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجزديك، فتقدموا ووقعوا على أطراف العسكر الشامي، فرجع الفضل إلى دمشق وغلقت أبواب البلد لما قرب العسكر المصري منها.

وتقدم العزيز وترك ثقله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكسوة؛ فاستنجد الفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دمشق، وحضر الظاهر من حلب، وناصر الدين صاحب حماة، وأسد الدين صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيره. فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أن لاقدرة له بهذا الجمع، وكتب إلى عمه العادل يقول: أنا ماخرجت من الديار المصرية إلا لاستنقاذ جليل من الفرنج، فبلغني أن الملك الأفضل حالف الفرنج عليّ، واستنصر بهم، ووعدهم أن يعيد البلاد إليهم، فافتضى ذلك سؤقتنا إليه، وبلغنا أنك تدخل بيننا وبينه، وحوشيت من ذلك، وأنا خير لك من غيري، وإن أردت أن تكون السلطان ورئيس الجماعة فأنا راضٍ بذلك.

وكتب لأخيه الملك الظاهر وغيره من أصحاب الممالك وترددت الرسائل بينهم.

وتقررت الحال على أن يكون للملك العزيز البيث المقدس وماجاوزه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبرية وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يعطي الأفضل لأخيه الملك الظاهر جبلة واللاذقية؛ وأن

يكون للملك العادل بالديار المصرية إقطاعه الأول، وأن يُخْطَب للملك العزيز ببلاده، وتُنقَش السُّكَّة باسمه؛ وأن الملك العزيز يُمدُّه بألف فارس إعانةً له على فتح خلاط.

واجتمع الملك العادل بالملك العزيز، وتزوَّج العزيز ابنته، وجاء الملك الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الملك العزيز. وتقرَّرت قواعد الصلح.

وتأخر الملك العزيز إلى الكُسوة ثم إلى مَرْج الصُّفْر، ومرض به ثم أفاق.

ولما عزم على العُود إلى الديار المصرية خرج لوداعه سائر الملوك الذين حضروا لنصرة الأفضل، ثم خرج إليه الأفضل في سابع شعبان وأدركه بفيق، وهي أعلى الغور، فأكرمه الملك العزيز، وبالغ في احترامه وساله الأفضل أن يرجع إلى دمشق ليزور قبر أبيه، فأجاب إلى ذلك؛ ثم أشار عليه أصحابه ألا يفعل، فامتنع، وعاد الأفضل، وسار العزيز إلى الديار المصرية فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهل جمادى سنة سبعين وخمسة مائة هبَّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة من وقت العصر، وسقطت في ثالث الشهر بردٌ كثيرٌ أكبره قدر البيض وأصغره قدر النبق، وصار على جبل المقطم منه شيء كثير كالجبل الثاني؛ ونقل الناس منه مدة أربعة أيام؛ ثم سأل حتى ملأ الخندق، ودخل الماء من المرامي التي في السور إلى القاهرة، وعلا، حتى خيف على البلد.

ذكر خروج الملك العزيز لقصد الشام ثانيا ورجوعه

وقصد العادل والأفضل الديار المصرية

وماتقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قلّد وزارة دمشق لضيء الدين ابن الأثير الجزري وحكّمه في البلاد، فقصد الأمراء بالأذى والإطراح، وتشاغل الأفضل عنهم، ففارق خدمة الأفضل ميمون القصري وسنقر الكبير، وعز الدين سامة، وغيرهم، وحضر بعض هؤلاء إلى الديار المصرية، وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إنّ الأفضل مسلوب الاختيار؛ وحرّضوه على قصد دمشق؛ فخرج إليها في سنة إحدى وتسعين وخمسة.

فلما اتّصل خبرُ خروجه بالأفضل ركب من دمشق في ربيع مجادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جعتر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظاهر بحلب واستنجد به أيضاً، فركب الملك العادل وجدّ في السير إلى دمشق خوفاً أن يسبقه العزيز إليها، وكاتب الملك العادل الأمراء الذين صُحّبه العزيز، وكان العزيز قد نزل بمنزلة الفوّار على مرحلتين من دمشق، واستمالهم وحدّتهم من العزيز، فمالوا إليه، واستمالوا أبا الهيجاء السمين، وفارقوا العزيز وقصدوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين ربيع شوال من السنة.

فلما وصلوا إلى دمشق اتّفق العادل والأفضل، وتحالفا على قصد العزيز وانتزاع الديار المصرية منه، على أن يكون ثلث الديار المصرية لملك العادل إقطاعاً، والثلثان للملك الأفضل. وساروا في طلب العزيز، فرجع إلى الديار المصرية وجدّ في السير ودخل القاهرة.

قال: ولما وصل العادل والأفضل إلى القدس سلّماه وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل لأبي الهيجاء السمين، فرتب فيه ثوابه، وسار معهما إلى الديار المصرية، فنزل الملك العادل على بلبيس، وكان السعر ماشيا فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرض العادل قصد مصر، وإنما خشي على الملك العزيز من الأمراء أن يقتلوه ويستولوا على الديار المصرية، فقصد لها هذا السبب.

ولما ضاقت الميرة على العسكر الشامي، وقلت أزوادهم ندموا على وضوهم إلى الديار المصرية؛ فأرسل الملك العادل إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم في الاجتماع به، فأذن له العزيز في ذلك؛ فخرج إليه، فاستبشر الناس بخروجه رجاء وقوع الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ، فاجتمعا، واستقرت القواعد على أن يكون إقطاع العادل بمصر على عادته، وأن تكون إقامته عند الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفو [العزيز] عن الأسدية والأكراد.

واجتمع العادل بالأفضل وأمره بالرجوع إلى دمشق، ثم اجتمع الأفضل بالعزيز، واستقر الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايا جليلة المقدار، ورجع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهيجاء السمين، فدخلها في المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسة.

ولم تطل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوعر خاطره، فعند ذلك قرّر، مع الملك العزيز، أن يُجهز العساكر لتمهد قواعد الملك بالشام وسائر البلاد، وأنفق على أن يكون العزيز بدمشق والعادل ينوب عنه بالديار المصرية.

ذكر ملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولما اتفق الملك العادل والملك العزيز على ماقرراه تجهز [الملك العادل] للمسير إلى دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثم برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خروجه وداعه لعمه الملك العادل، وحث العساكر المجردة على الخروج، وأقام ببركة الجب.

فلما كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنه كاتب الأسيديّة، وأنه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وأطلق رهائن كانت عند نوابه، وأنه وافق الظاهر صاحب حلب؛ فقرر مع الملك العزيز أن يتوجّها جميعاً ويأخذوا دمشق من الأفضل وحلب من الظاهر، فاتّفقا على ذلك وعقدا بينهما يمينا.

وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورَحَلَ هو وعمّه الملك العادل من البركة في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، فحَصَلَ لِلْعَادِلِ ضِعْفٌ فِي هَذَا النَّهَارِ مَنَعَةٌ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَكَانَ وَصُولُهَا إِلَى بَلْبِيسَ فِي سَابِعِ عَشْرِ الشَّهْرِ، وَكُمَلَتْ صِحَّةُ الْعَادِلِ فِي الْعَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَسَارَ إِلَى الشَّامِ عَلَى مَهَلٍ وَرَفَقٍ.

فلما تحقّق الملك الأفضل قُصْدَهُمَا لِبِلَادِهِ اسْتَشَارَ شَيْوْخَ دَوْلَتِهِ. فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَقْبَلَ إِخْوَانَهُ وَعَمَّهُ وَيَسَلِّمَ لَهُمَا الْأَمْرَ؛ وَأَشَارَ وَزِيرُهُ ضِيَاءُ الدِّينِ ابْنُ الْأَثِيرِ الْجَزْرِيّ بِالتَّصْمِيمِ وَالْمُخَالَفَةِ، فَرَجَعَ إِلَى رَأْيِهِ، وَحَصَّنَ الْبَلَدَ، وَفَرَّقَ الْأَمْرَاءَ عَلَى الْأَسْوَارِ، فَلَمَّا رَأَى شَيْوْخَ الدَّوْلَةِ وَأَكَابِرَهَا أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ وَعَاطَمَ عَلَى رَأْيِ وَزِيرِهِ رَاسَلُوا الْمَلِكَ الْعَزِيزَ وَالْمَلِكَ الْعَادِلَ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ؛ فَرَكِبَا بَعْسَاكِرَهُمَا وَتَأَهَّبَا فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ

السادس والعشرين من شهر رجب، وخرَج أهلُ دمشق لِقِتالهم؛ والتَقُوا في السَّابع والعشرين من الشَّهر، فلم يكن بأسرع من انهزام العسْكر الشَّامي. وتبعَهُم العزيز والعاذل حتى ألجأوهم إلى سُور البلد، ودخلوا دمشق، وتبعهم العسْكر، فملكَت البلد.

فعندها ركب الملكُ الأفضل إلى خيمة أخيه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قال: ودخل الملك العادل ومَن معه باب توما والباب الشَّرقي، ونَزَلَ الدَّار الأَسديّة، ودَخَلَ الملك العزيز من باب الفرج وبيات في دار عمّته الحساميّة، ومَلَكَ العزيز دمشق وأقيمت له الخُطبة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من الشهر.

قال: ولَمَّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ما كان قرر من إقامته بالشام وتمكّن عمه الملك العادل من الدِّيار المصريّة، واعتذّر إلى أخيه الملك الأفضل في السِّر، فأظْهر الأفضل سِرَّهُ لمن معه فظنوا أن هذه خديعة، فأرسل إلى العادل وأعلمه بمُراسلة العزيز، فعتبّه العادل، فأنكر الحال، وخرَج الأفضل إلى صَرْخد، وقُرّر له في كل سنة مائتي ألف درهم من صرخد وغيرها، وهو كارهٌ لذلك، وسأل أن يكون بمكّة؛ وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن الملك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخد يوم الاثنين، ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكانت مدّة ملكه لدمشق، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاث سنين وخمسة أشهر.

ودَخَلَ الملكُ العزيز قلعة دمشق واستقرّ بها في يوم الأربعاء رابع شعبان من السنة المذكورة، وجَلَس يوم الجمعة بدار العدل واسقط

المكسوس بدمشق ماهو مقرّر على سوق الرقيق، وسوق الدواب، ودار البطيخ، والملاهي، والعصير، والفحم، والحديد، وسبكي الفولاذ والزجاج.

قال: وهرب ضياء الدين ابن الأثير ونهبت داره.

ونودي في دمشق أن يلبس أهل الذمة العمام الغيار ليُعرفوا من المسلمين، وكان سبب ذلك أن الملك العزيز لما جلس بدار العدل دخل عليه رجل له هيئة حسنة، فما شكّ العزيز أنه من الأشراف، فلما علم أنه ذميّ أمر بذلك.

قال: ولاطف الملك العزيز عمّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النيابة، فأجاب بعد امتناع، وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدين ابن شكر كاتب العادل.

وفارق الملك العزيز دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعاد إلى الديار المصريّة بعد أن استخلف الملك العادل وسلّم إليه دمشق وماهو مضاف إليها من القلاع والحصون والأعمال، والخطبة والسكة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدة في رابع شهر رمضان؛ وفوض شدّ الأموال والخطاب عليها للأمير فخر الدين إياز جهاركس؛ وضمن الخُمور في كلّ سنة بسبعة عشر ألف دينار، فتجاهر الناس بها وظهر الفساد وفشا في الناس؛ واجتمع الرجال والنساء في شهر رمضان من غير استتار، سبياً في الخليج وساحل مصر؛ ورثب ضمان الخمر في النفقة على طعام السلطان؛ وهذه من البلايا التي لم يُسمع بمثلها، فإنّ عادة الملوك والأكابر [أن] يجتهدوا أن يكون مأكلهم من أحلّ الجهات كالجوالي ومايناسبها، وبسبب إطلاق الخُمور كثر القتل بالقاهرة والجراحات، وخطف العمام والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغلّت الأسعار في هذه السنة بالديار المصريّة، واشتدّ الأمرُ على النَّاسِ، وكثُر الوِبَاءُ، وبلغ القمح كلُّ أردبٍ بدينارين، وأظُنّ الدِّينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهماً، وهذا كان نهاية الغلاء في ذلك العصر.

ولقد وصف الفاضل عظم ما حلَّ بالنَّاسِ من غلوِّ السَّعرِ أمراً عظيماً، فكيف لو أدرك الفاضل الديار المصريّة في سنة خمس وتسعين وستائة، وقد أبيع القمح سعر الأردب ثلاثة عشر ديناراً ونصف دينار، وأبيع الفُرُوج بخمسين درهماً، ورطل البطيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسَّفَرَجلة بثلاثين درهماً.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السَّيد الشريف عبد الرَّحِيم (٢٢)، قدس الله روحه ونور ضريحه، بقنا من أعمال قوص ودُفِن بجبانتهَا، وضريحه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصَّلاح بالدُّنيا.

ومأ نُقل من كلامه، قدس الله روحه، وقد سمع المؤذّن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال الشيخ: شهدنا بإشاهدنا، ومن كلامه: لا يستطيع العارف أن يوصل إلى من لا يعرف حقيقة ما عرف، كما لا يستطيع البصير أن يوصل إلى الأكمه حقيقة الألوان، وعرض هذا الكلام على الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، رحمه الله ونفع به، فقال هذا كلام من غرق في الحقيقة.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة بيروت من المسلمين، وسبب ذلك أن فرنج الساحل راسلوا ملك الألمان في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكان قد ملك

جزيرة صقلية، وعرفوه أن المسلمين قد اشتغلوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه إلى عكا. وصادف ذلك سقوط الكندي ملك عكا من شباك فهلك، فملك قبرص عكا، وخرج إلى بيروت فملكها من المسلمين، وكان بها عز الدين سامة، فعمرها الفرنج ولم تزل بأيديهم إلى أن فتحها الملك الأشرف في سنة تسعين وستمائة، على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.

وفيها خرجت المراكب الحربية لقصد بلاد الفرنج، فوجدوا بطساً للفرنج فملكوها، فوجد المسلمون فيها أموالاً جلية.

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهاز ركس الناصري القيسارية المعروفة به بالقاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن

وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسة توفى الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخو السلطان الملك الناصر بالمنصورة التي أنشأها باليمن، وكان قد طرد ولده شمس الملوك إلى الحجاز. فلما سمع بوفاة والده سار إلى اليمن وملك بعده.

وإلى سيف الإسلام هذا يُنسب البستان الذي كان بظاهر القاهرة، وهو الآن عمائر تُعرف بحجر سيف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسة بداره بالقاهرة.

وكان قد خرج إلى الفيوم لقصص الصيد إلى ذات الصفا، فحتم، فعاد إلى القاهرة واشتد مرضه، فمات، وقيل إنه ساق خلف الصيد فكبا به فرسه مرة بعد أخرى، فمات بعد ثلاث. ودُفن بداره بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة] في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين، وقال الفاضل في جمادى الآخرة. فكانت مدة عمره سبعا وعشرين سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوما؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يوما.

وكان رحمه الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه، شجاعاً حسن الأخلاق.

وخلف من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملك المنصور محمد، والقائم بعده؛ وعلي، وغمر، وإبراهيم؛ وعيسى؛ ومحمود؛ ورعا؛ ويوسف؛ ويونس؛ وولدان صغيران، ولم يخلف في خزانته ذهباً ولا دراهم إلا بعض قماش ليس بالطائل.

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد بن الملك العزيز

ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية

بالديار المصرية

ملك الديار المصرية بعد وفاة أبيه في يوم الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه. ولما مات الملك العزيز كان عمه الملك العادل يُحاصر مارددين فاجتمعت الأمراء الصلاحية وعقدوا الأمر لولده ولقبوه بالملك المنصور، وكان قبل ذلك يُلقب بالناصر، وإنما تركوا الناصر لموافقته لقب الخليفة، وركب في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم، وشق القاهرة من باب زويلة إلى باب النصر، والأمراء في خدمته، وكتب الأمراء إلى الملك العادل يعزونه في ابن أخيه

الملك العزيز ويذكرون اتفاقهم على تنصيب ولده في السلطنة بعده، وأنهم على طاعة الملك العادل.

ثم اجتمعت الأمراء الأسدية والصّلاحية بظاهر القاهرة وقالوا: إن الذي فعلناه من حفظ الملك العزيز في ولده هو نِعْم الرأي، وإنما هو صَغِير السن لا يفهم ما يُقال له، ولا يقوم بأعباء الملك، ولا بد لنا من كبير من هذا البيت يُرِيه ويكفله ويدبّر أحوال الدولة، وليس لها مثل الملك العادل، وهو الآن مشغول ببلاد الشرق، وقصدوا أن يكتبوا إليه ويستدعوه فكرة بعضهم شدة أخلاقه ومماقتة للجند، فعدلوا عنه واتفقوا على استدعاء الملك الأفضل من صرّخذ.

وأن يتولّى أتابكية الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله، أخوه الملك الظافر خضر، فاستقرّ ذلك.

وكتبوا إلى الأفضل وذلك في يوم الخميس سادس عشر صفر من السنة، ونزل الملك الظافر بدار السلطنة في القاعة العزيزية، وقام بنبابة السلطنة.

قال: ولما وصل كتاب الأمراء إلى الأفضل، خرج من صرّخذ في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية إلى البيت المقدس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة

واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس السابع من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسة؛ فبرز الناس ليلقائه، وزينت المدينة، لقدومه، ولما دخل أقر الخطبة باسم الملك المنصور ابن أخيه، ونقش

السَّكَّةَ بِاسْمِهِ، وَكَانَ الْأَفْضَلُ يُذَكَّرُ بَعْدَهُ. وَكَتَبَ إِلَى عَمِّهِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ
يَبْذُلُ لَهُ الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَى أَمْرِهِ.

قال: ولَمَّا وَصَلَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ إِلَى بَلْبَيسَ خَرَجَ فخر الدِّينَ إِيَازَ
جَهَارَكِسَ، وَزَيْنَ الدِّينَ قَرَاغَا عَلَى أَنَّهَا يَلْتَقِيَانِهِ، فَتَوَجَّهَا إِلَى الْمَلِكِ
الْعَادِلِ، ثُمَّ خَرَجَ فِي يَوْمٍ وَصُولِهِ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سَرَّاسُنْقَرَ بِمَا لِيَكِهِ،
وَجَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَالتَّحَقَّ بِالْمَلِكِ الْعَادِلِ، وَسَارَ إِلَيْهِ، إِلَى مَارِدِينَ.

ذِكْرُ مَسِيرِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ إِلَى الشَّامِ وَحِصَارِ دِمَشْقَ

وَعُودِهِ عَنْهَا وَخُرُوجِهِ عَنِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ

قال: ولَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَفْضَلُ فِي تَدْبِيرِ الدَّوْلَةِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ
لِلْمَلِكِ الْمَنْصُورِ مَعَهُ إِلَّا الشَّرْكَةُ فِي الحُطْبَةِ، حَمَلَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى قَصْدِ
دِمَشْقَ وَحَضْرَهَا، وَقَالُوا: هِيَ لَكَ بِوَصِيَّةِ أَبِيكَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ، فَعَزَمَ عَلَى
المَسِيرِ إِلَيْهَا، وَأَمَرَ العَسَاكِرَ بِالاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ. وَبَرَزَ إِلَى المَخِيْمِ بِبِرْكَةِ
الجُبِّ، هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، فِي يَوْمِ السَّبْتِ العِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى
الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ وَاسْتَحَثَّ العَسْكَرَ عَلَى الخُرُوجِ.

ووصل إليه في يوم الأربعاء، السادس من جمادى الآخرة، رسولٌ من
أخيه الملك الظاهر صاحب حلب وهو يلومُه على إنْفَازِ الرُّسْلِ بالطَّاعَةِ
للعادل، ويقول: إن أكثر الناس كانوا منصرفين عنه فانصرفوا إليه، وحثه
على سُرْعَةِ قَصْدِ دِمَشْقَ؛ ويقول: اغتَنَمَ الفُرْصَةَ مادام العادلُ في حِصَارِ
مَارِدِينَ؛ ووَعَدَهُ بِالوُصُولِ إِلَيْهِ، فَأَكَّدَ ذَلِكَ مَاعِنْدَهُ، وَأَقَامَ بِبِرْكَةِ الجُبِّ
وهو يحثُّ العسکرَ على سُرْعَةِ الحِركَةِ، إِلَى ثَانِي شَهْرِ رَجَبٍ، فَرَحَلَ عَنْهَا.

وفي مدّة مقامه ببركة الجبّ أحضر قاضي القضاة والشهود، وأشهدهم
على نفسه أنه وقف المطرية (٢٣) ومُنِيَّةَ الباسِلِ (٢٤)، والرِّبَاعَ المَسْوُغَةَ

والمستمرّة بيد الدّيوان على عمارة سُور القاهرة ومِصر والبيهارستان بالقاهرة.

قال: ولَمَّا وصل الأفضل إلى بلبّيس اختطّط على ماكان باسم العادل وألزمه بالديار المصريّة؛ وأقّطعه، ثم قبض على أخيه الملك المؤيد وقبّده وأعادته إلى القاهرة، فاعتقل بالقلعة، وتمادى الملك الأفضل في سيّره إلى دمشق. هذا ماكان منه.

وأما الملك العادل فإنّ سراسنقر الناصري وصل إليه بهاردين واستحثّه على العود إلى دمشق، فأوصى ولده الملك الكامل بمُحاصرتها. وفارقها العادل لخمس بقين من شهر رجب، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد. ووصلت العساكر المصرية في يوم الخميس، ورّتب الأطلاب وسار الملك المنصور بن الملك العزيز في القلب وزحف على البلد فأخذ قصر حجاج والشاغور، وكان العادل لما شاهد إقبال العساكر أمر بإحراق قصر حجاج فأحرق، واحترق فيه عدّة مساجد وأطفال. وأحاطت العساكر المصريّة بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السلامة، وانتهوا إلى السوق الكبير، وخرجوا من باب الفراديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر، ثم تأخر إلى ميدان الحصى؛ واستقر بهذه المنزلة أكثر من سنّة أشهر.

وكتب الملك العادل جماعة من الأمراء المصريين، ففارقوه ودخلوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملك الظاهر صاحب حلب ومعه أخواه الظافر والمعز وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماة دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب حصن بانياس، وكان من أكابر الدولة، فأشار بالصلح.

قال: ولما حاصر الملك الأفضل دمشق، منع من يدخل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتد الأمر على أهل دمشق، واستغاثت الرعايا على العادل، وتسلطوا عليه، وحملوه على تسليم البلد. وانتقل أكثر من في البلد إلى العسكر، ونصبوا به أخصاصاً ومساكن؛ وأقيمت الأسواق به.

فلما اشتد الأمر على العادل كتب إلى الظاهر يستميله وقال: أنا أسلم البلد إليك دون غيرك، فنيي الخبر إلى الأفضل، فاضطرب رأبهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلد إليكما بعد سبعة أشهر، فأجاباه إلى ذلك، وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقول: الظاهر قد صالحني، وإلى الظاهر بمثل ذلك.

واتفق في فساد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعات بالديار المصرية جليلة المقدار، فحسداهم آخرون عليها، فكانوا يأتون إلى الملك الأفضل ويقولون: إن فلاناً قد عزم على قصد عمك العادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إن الأفضل قد عزم القبض عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فيرى في وجهه أثر التغيير لما نقل عنه، فلا يشك ذلك الأمير في صدق الناقل فالتحق به جماعة من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قدم الملك الكامل بن الملك العادل من الشرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتركان فاشتد به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سفح جبل العقبة، ثم انتقل إلى مرج الصفر في يوم الاثنين ثاني عشر صفر؛ وعاد الظاهر والمجاهد.

واشتد البرد على العسكر المصري، فعاد الأفضل إلى الديار المصرية،

وساق العادل بعساكره في إثره، فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس في
حادي عشري شهر ربيع الأول، فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولما وصل الملك العادل إلى تل العجول، أقام به حتى اجتمع
إليه أصحابه، ورأسل الأفضل، فعاد جوابه أنه لا يصلح حتى يفارق
الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم
وجاعة منهم باطنوا الملك [العادل].

حواشي نهاية الأرب

- ١- أتسز بن أوق، تقدم ذكره في الجزء الأول من موسوعتنا.
- ٢- أي فرقة يبلغ تعدادها عشرة آلاف:
- ٣- أي السلطة المملوكية أيام الناصر محمد بن قلاوون
- ٤- القبق بالتركية قرعة عسلية، وقد أطلقت على لعبة رياضية، حيث كانت القرعة تنصب هدفا لرميات الفرسان، أو يتخذ بدلا عنها دريئة خشبية بأعلاها دائرة تسدد نحوها الرميات.
- ٥- أي جعبتين أو كنانتين.
- ٦- زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير، فهو مصدر النويري الاساسي، والاشارة اليه دوما عند ما يقول: قال المؤرخ.
- ٧- حصن من أعمال أحمص أو حماه كان على مقربة من حصن الأكراد. معجم البلدان.
- ٨- كذا بالأصل وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦١، والمعني بهذا برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وعند ابن القلانسي كان هذا سنة اثنتين وخمسمائة.
- ٩- أي الخراج المقرر على كل اقطاع.
- ١٠- كان على مقربة من قلعة القاهرة- طبعاً - قبل تأسيسها
- ١١- أواني من الخزف.
- ١٢- هو سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسي، المعروف بابن رشا. توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٤٠ م سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا للمقرزي
- ١٣- هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي - سيرد ذكره في اتعاظ الخنقا
- ١٤- هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد، أبو الفضائل، المعروف بابن الأزرق سيأتي ذكره في اتعاظ الحنفا
- ١٥- هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن ابي كامل - سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
- ١٦- تعرف منية الباساك حاليا باسم المنيا في محافظة الجيزة - مركز الصف. القاموس الجغرافي لرمزي ق ٢ ج ٣ ص ٣١.
- ١٧- أطفيج حاليا بلدة تابعة لمركز الصف - محافظة الجيزة - القاموس الجغرافي ق ٢ ص ٣ ص ٢٦
- ١٨- تتبع دلاص حاليا مركز بني سويف بمحافظة بني سويف، القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠
- ١٩- هي مدينة المنية الحالية في مصر حاضرة محافظة المنيا فيها.
- ٢٠- من قرى مركز الجيزة- محافظة الجيزة. القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ٣
- ٢١- الجبال المشرفة على مدينة طرابلس في ليبيا.
- ٢٢- عبد الرحيم بن أحمد بن حجوز القنائي
- ٢٣- من ضواحي القاهرة، القاموس الجغرافي ق ٢ ج ١ ص ١١
- ٢٤- من اقليم الأفيحية، تابعة حاليا للمركز الصف بمحافظة الجيزة. القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ٣١